ر. د.م.د: ISSN 2437-0819-رقم الإيداع القانوني:6068-2014

مساءلة التاريخ الثقافي المغربي معرفيا وثقافيا

د. كاملة مولاي

المركز الجامعي عبد الحفيظ بوالصوف- ميلة

تاريخ الإرسال: 2018/01/09 تاريخ القبول: 2018/04/13

الملخص:

من نافلة القول أن النموذج التاريخي حاضر بقوة في أعمال محمد مفتاح،وأطروحته عن الخطاب الصوفي تعد إرهاصا مهما لهذا الحضور، وتحديدا أوليا للإطار المنهجي ، والقراءة المتأنية لأعماله قادت إلى استظهار ما يمكن الحكم اعتباره إشكالا مركزيا في تلك الأعمال حيث يقع تركيز الباحث وبصورة ملحة ومتواصلة على إشكالية تحقيب الثقافة المغربية وإعادة قراءة تراثها. ويمكن التدليل على ذلك، من خلال هيمنة النصوص المغربية التي يشملها التحليل وتكرر الإشكال ذاته، وهو التحقيب في أهم أعماله.وفي هذه الورقة العلمية سنحاول كشف منهاجية مساءلة تاريخ الثافة المغربية عن طريق مقاربته بتوظيف ميكانيزمات علمية وأخرى حملها النقد الثقافي.

الكلمات المفتاحية:

تحقيب؛تاريخ؛المغرب؛إيديولوجيا؛منهاجية؛نقد.

Résumé

Le modèle historique fortement présente dans le travail de la Mohammed mefteh , et sa thèse sur le discours mystique est un précurseur important pour ce public , et la détermination d'un cadre systématique initiale qui Stator tard " , et la lecture attentive de son travail a conduit à mémoriser ce que l'esprit peut être jugé problématique centrale dans ces actes où la concentration de chercheur se trouve dans une urgente et durable sur la culture marocaine et du patrimoine relire . Il peut démontrer que , grâce à la domination des textes marocains couverts par l'analyse et a répété la même confusion .

تمهيد:

النقد المعرفي ضرورة ثقافية تجعلنا نتعرف على الممكنات الموجودة في النصوص المعرفية التي تملك واقعها وتمتلك وقائعيتها من أفكارومفاهيم ؛ بمعنى أن أي نص له بؤرة معنى وفضاء للدلالة، يقوم الناقد محمد مفتاح استنادا إلى مرجعياته التفسيرية بتعرية

ضبابيته واختراق حواجزه، ونقصد بالحواجز اللغة بوصفها أهم أداة لتخزين التجارب الحياتية في عقل الإنسان.

والنقد الثقافي ليس هو نقد الثقافة، وإنما هو قراءة لها للبحث عن الأنماط المضمرة، التي تختبئ تحت عباءة الجمال في النقد الأدبي ،فالنقد الثقافي يعتمد على أدوات النقد الأدبي المعدلة تعديلا ثقافيا.

1-مفهوم النقد المعرفي:

يمثل النقد المعرفي اتجاها جديدا للكشف عن أعماق النص المعرفية والثقافية، هذا النقد يوظف مدخرات العلوم المعرفية عموما من نظريات لغوية ونظريات علمية، ولا سيما علم النفس المعرفي، ولهذا تفتحت الدراسات الأدبية على المناهج العلمية.[1] هذا يستلزم على الناقد أن يكون فاهما للنظريات والتعاريف والتواريخ والعلاقات الداخلية في النصوص، وقارئا جيدا لها، و كل ما يتصل بها ابتداء من الميلاد وحتى الأثر الناجم عنها عند المتلقي .

النقد المعرفي يمكن الفكر من التحرر من الرؤى المعرفية الثابتة والمستعصية على التغيير والاستبدال، وعن طريقه تتشكل رؤى تتوافق ومتطلبات الواقع. من هنا يمكن القول أن لهذا النوع من النقد وظيفة جد هامة في حياتنا، لأنه جوهر من جواهر الفكر وروحه. فهو يحتاج إلى تفكير عميق ومعرفة كبيرة تمكن من الولوج في عمق القضايا والمشكلات، حتى إن هذا النوع من النقد يحل معضلة التعصب والهيمنة ويجعلنا نتفتح على الآخر.ولنا الحرية في ذلك. دون إلغائه أو إقصائه. بناء على ما سبق يقوم النقد المعرفي على دراسة التعبير الأدبي وذلك بالتركيز على الظواهر اللغوية والأسلوبية التي تقود إلى اكتشاف ميكانيزمات التفكير عموما. إن النقد المعرفي يدرس طريقة تفكير الإنسان عبر دراسة استعمالاته اللغوية.

المعرفة النقدية أصبحت تنحو أكثر نحو كسر الحواجز المتباعدة الموجودة بين العلوم الإنسانية والعلوم البحتة، لأنه في تلاحقها تكشف الإنسان الفكرية للنص. لذا علينا "أن ندرك أن للنقد جيرانا عديدين، وأن على الناقد أن يقيم الصلات معهم بشكل يحفظ له استقلاله، فقد يحتاج لمعرفة شيء من العلوم الطبيعية، ولكن عليه أن لا يضيع الوقت في تقليد منهاجها."[2]

تبنى الناقد النقد المعرفي، واعتمد على النظريات اللغوية في تحليله للخطاب الأدبي شعره ونثره، كالنظرية السيميوطيقية، ونظرية الشكل الهندسي ونظرية التواصل والعمل. كما اعتمد على نظريات علمية، كنظرية الكوارث ونظرية الحرمان ونظرية الذكاء الاصطناعي ،ويندرج النقد المعرفي عنده ضمن ما أسماه بالمنهاجية الشمولية التي تستوعب كل ما هو موجود في الكون.

الباحث يدرك جيدا أنه من المهم جدا إجراء تحويل في المنظومة المصطلحية، لأن المشهد الأدبي والثقافي العربي يحتاج إلى نقلات نوعية من تسليط أضواء الأدوات والأجهزة والمصطلحات النقدية الجديدة، لبث روح جديدة في أجساد النصوص الراهنة وكذلك القديمة منها وذلك بنقدها وكشف أنساقها.

2-النقد الثقافي :

النقد الثقافي هو مشروع حضاري في" نقد الأنساق المضمرة التي ينطوي عليها الخطاب الثقافي بكل تجلياته وأنماطه وصيغه، ما هو غير رسمي وغير مؤسساتي وما هو كذلك سواء بسواء".[3]

إن النقد الثقافي كمذهب فكري يشهد ثراء معرفيا هائلا، لأنه يقوم على فكرة الثقافة التي تقوم بوظيفة مهمة في التطورات الاجتماعية والسياسية وكذلك في تطور وتنمية هوية الفرد، وهذه الهوية تختلف من مجتمع إلى آخر، وهي سمة تجعل كل مجتمع يمتلك خصوصياته الثقافية التي ابتكرها وأنتجها وعايشها، ومن ثم فإن النقد الثقافي سيكون صالحا لتطبيق على نصوص تنتمي إلى بيئات مختلفة ولغات مختلفة، لأنه سيرتكز على سمات بيئة النص الثقافية وقراءة لغته،و حياة أفرده الاجتماعية والفكرية وعبر كل هذا لابد أن يتسلح المنشغل بالنقد الثقافي بالتحليق في أفق العلوم الإنسانية كلها ولا يتورع في طرق أي باب يجد فيه ولو شيئا مفيدا لفتح مغاليق النص الإبداعي .

يعتبر الغذامي أن النقد الثقافي بديل ومشروع جديد مكان النقد الأدبي، إنه يدعو إلى إعلان موت النقد الأدبي، ولأن هذا الأخير قصر نفسه على الجمال واستنفذ كل طاقاته وإمكانياته حتى " قد بلغ حد النضج، أو سن اليأس... ولم يعد قادرا على تحقيق متطلبات المتغير المعرفي والثقافي الضخم الذي نشهده الأن عالميا وعربيا "[4]

إن مهمة النقد الثقافي ليست مقتصرة على كشف جماليات النص كما يفعل النقد الأدبي، بل إنه يتعداها إلى ما هو غير جمالي، بمعنى أنه يلتفت إلى جماليات أخرى في النص، أي الدخول في عمق النص بدلا من النظرة السطحية، وتذوقه بوصفة قيمة ثقافية لا مجرد قيمة جمالية وذلك من خلال الكشف عن الأنساق المضمرة في الخطاب الثقافي.

ومن المهام التي يصبو إليها النقد الثقافي في الوقوف ضد « هيمنة النموذج الوافد، لا ضد النموذج في حد ذاته، وأن يعطي للنموذج العربي الصحيح الأصيل احترامه، وأن يتيح له الفرصة ليؤدي وظيفته الاجتماعية والأدبية، ولا نقصد هنا الوظيفة المغلوطة التي جلبتها أزمة الركود والجمود العربي ،كما لا نقصد الوظائف المزيفة التي جلبتها أزمة تفريغ الذاكرة العربية من هويتها وملئها بالثقافات المضادة التي تسعى جاهدة لتحميل الماضي كل أوزار الحاضر، وتسقط على هذا الماضي كل العور الذي اصاب الواقع العربي الحاضر من تسلط وقهر وإرهاب، ظنا أن هذا هوا السبيل لدخول العولمة ." [5]

النقد الثقافي–عند الغذامي- نظرية نقدية /ألسنية الأدوات ومعرفية القيمة وثقافية المضمون.[6]" القراءة الثقافية تفتح النص على معارف مختلفة ومتنوعة،و تفسيره في إطار علاقته بغيره من الأجناس الثقافية والعلوم المختلفة،و لا تكتفي بتفسيره في حدود نفسه وذلك عن طريق مقارنات،و مقاربات ومرجعيات،لمعارف شمولية متعددة تستوعب الجمالي والثقافي بوصفها شرطا أساسيا لاستراتيجياتها في الكشف عن الرصيد الثقافي للنص الأدبي."[7]

الناقد محمد مفتاح امتلك وعيا ثقافيا مكنه من تحليل الأنظمة الثقافية التي ابتدعت فيها النصوص، التي اختارها للتحليل، وينظر إلى الوعي في هذا السياق على أنه مرحلة تعبر عن منطقة النضج في نمو الفكر الإنساني، وهو وعي على صعيد الأنظمة الاجتماعية وناتجها الخطابي ،و الثقافة التي تستوعبها هذه الأنظمة، وقد تمكن من الإحاطة بالأنساق المضمرة نظرا لما يملكه من خبرات ومعارف واعتقادات ،وبشكل عام ،استطاع أن يكشف ماهو مخبوء تحت كل ما هو جمالي أيضا، أي " أن الخطاب البلاغي الجمالي يخبئ من تحته شيئا آخر غير الجمالية ،و ليست الجمالية إلا أداة تسويق وتمرير لهذا المخبوء، وتحت كل ما هو جمالي هناك شيء نسقي مضمر، ويعمل الجمالي عمل التعمية الثقافية لكي تظل الأنساق فاعلة ومؤثرة ومستديمة من تحت قناع. "[8]

لا يخلو أي نص من مخلفات ثقافية، وكل أديب يتأثر بالبيئة التي يعيش فيها، والقارئ الواعي يكتشف من خلال القراءة الواعية الأنساق الثقافية في النص.و من خلال القراءة لمؤلفات مفتاح يبدو أنه عمل على توسيع متنه من خلال قراءة أكبر عدد من النصوص بينما درس في السابق نصين شعريين(نونية أبي البقاء الرندي ورائية ابن عبدون)، وهما قديمان، بينما النصوص التي عالجها مثلا في كتابه "دينامية النص" تراوحت بين القديمة والمعاصرة ومثال ذلك: قصيدة القدس لأحمد المعداوي (المجاطي)، وهي حديثة. وقصيدة لأبي نواس وأخرى لابن الخطيب وهي قديمة، أما المعاصرة فدرس قصيدة بعنوان " قصائد إلى ذاكرة من رماد" للشاعر المغربي محمد الخمار الكنوني. كما درس بعض قصص الكرامات أو ما يسمى النصوص الصوفية. كما توجه الى الخطاب القصصي وحلل قصته الغابر الظاهر" لأحمد بوزفور وهوا لم يتوقف عند هذا الحد، فبعد دراسة الخطاب الشعري والخطاب الصوفي وكذلك عمد إلى تحليل الخطاب القرآني، وذلك من أجل البرهنة على أن نظريته صالحة لأن تطبق على جميع النصوص سواء الدنيوية أم الدينية.

و من الواضح أن الناقد اعتمد في مقارباته التحليلية للنصوص الشعرية جملة مناهج وهدا ما أشار إليه في قوله " ليس هناك نظرية شاملة تصف كيفية اشتغال النص الشعري وتفسرها إنما هناك محاولات لبعض الشعريين والسيميائيين تلقي الضوء على جوانب دون أخرى" [9]

استطاع الباحث من خلال اطلاعه وثقافته الواسعة أن يحاور نصوصا وأن يكشف الانسجام بنها، وذلك ما فعله من خلال التأكيد بأن"عملية الحوار هي عملية تحويل " [10]

حيث توصل إلى أن هناك علاقة رباعية بين نص ابن الخطيب ونص أبي نواس، وقد مثل هذه الرباعية بالاعتماد على ميكانيزمات أربعة هي : المقصدية، المماثلة والمشابهة ،نوع العلاقة بين النصوص المتحاورة وأخيرا التركيب بين المفاهيم الثلاثة السابقة لتوضيح ذلك،جعل الرباعية كالتالي:

الشاعر (أ) أبو نواس، القصيدة (أ) مقطوعة أبي نواس.

الشاعر (ب) ابن الخطيب، القصيدة (ب) مقطوعة أبي الخطيب.

علاقة المقطوعة (ب) بالمقطوعة (ا) هي المماثلة والمشابهة تنعكسان في الشكل والمضمون وقد قام ابن الخطيب بعملية تحويل إثباتي منسوب ببعض عناصر النفي ولتوضيح ذلك نأتي بما يلي:

أبو نواس ابن الخطيب

تحديد المكان السوس (أ)	تحديد المكان غير الشام (أ)
عدم احترام الدين (ب)	عدم احترام الدين (ب)
لون الخمرة (ج)	لون الخمرة (ج)
الرهبان (د)	الرهبان (د)
وظيفة الخمر (هـ)	وظيفة الخمرة (هـ)
وصف الغلام (و)	

مكونات نص أبي نواس -إذن- هي: (+أ،+ب،+ج،+د،+هـ،+و)، ومكونات نص ابن الخطيب هي : (+أ،+ب،+ج ،+د،+هـ)، فقد حذف ابن الخطيب بعض العناصر كما أن ترتيبها لم يكن واحدا، وأبو نواس حدد المكان فهو السوس، أما ابن الخطيب فحدده في غير الشام في البيت الخامس ،و أشار أبو نواس إلى عدم احترام الدين وهو ما جاء في شطر البيت الثاني، وفعل ابن الخطيب نفس الشيء، ولكنه في البيت السابع، ووصف أبو نواس الخمرة في البيت الثالث وكذلك فعل ابن الخطيب، ولكن في البيت التاسع.

استطاع مفتاح أن يكتشف حتى الإحالة والتي هي نوع من العلاقة الحوارية، والتي تتحقق عن طريق إشارة الشاعر إلى أمور خارج – نصية (قصة – حادثة – أعلام ...) .وهذا يدل على أنه لم يركز فقط على الأبعاد الجمالية والذاتية والإقناعية ضمن شبكتها العلاقاتية، وانما ايضا استطاع الوصول الى الرصيد الثقافي للنص الأدبي.

أما القصيدة الدرامية " قصائد ذاكرة من رماد " للكنوني، فيها الكثير من السمات الثقافية التي اكتشفها الناقد وقد ذكر بعضها ولمح لبعضها الآخر، فمثلا اطلاع الشاعر على القرآن الكريم مثل سورة الأعراف ،ويظهر في قوله: " كلما اشتعلت لعنت أختها " (المقطع الأول من القصيدة: غربة الماء.) ففيه حوار مع :[كلما دخلت أمة لعنت أختها حتى إذا اداركوا فيها جميعا قالت أخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذابا ضعفا من النار

قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون (38) وقالت أولاهم لأخراهم فما كان لكم عليكم من فضل فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون (39) [11]

وقول الشاعر: " ففريق نجا بخيانته، وفريق مضى في المجامع " من (المقطع الثاني :العبور) يحاور القرآن في [فريقا هدى، وفريقا حق عليهم الضلالة ،إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ويحسبون أنهم مهتدون].[12]

وكما استطاع الناقد أن يكشف لنا أن الشاعر مطلع على كتاب الله عز وجل، لأن الجانب الثقافي للشاعر مهم جدا – بقدر ما – للقارئ، فله رصيد أيضا في الأمثال وقد برز ذلك في قوله : " فعين الرضا تلد اللغة العاهرة " (المقطع الثالث : تناوب النباح)، فمصدرها : " فعين الرضا عن كل عيب كليلة ".

ومن بين الدراسات التي قام بها مفتاح لتعزيز ثقافته، وتبيان مؤهلاته النقدية والفكرية، ما قام به من فروض ومنهاجية لدراسة شعر علال الفاسي من منظور نسقي في كتابه " مشكاة المفاهيم "، فتوصل إلى أن شعر علال الفاسي يتمحور – وإن كان مزيجا من تيارات فكرية متضاربة – حول الله والإنسان،و استند في ذلك على مفهوم الميكانيزم(Mécanisme) لتحليل ظاهرة المثاقفة المعقدة، فقسمه إلى ثلاثة مفاهيم هي : إواليات وآليات وآلات.

أما الإواليات فقد تمثلت في الحالات الذهنية والمعتقدات والرغبات التي تعتمل في الذات، أثناء تعاملها وتفاعلها مع ثقافة الآخر، وهي تتحقق بدرجات متفاوتة حسب مواقع الأشخاص ومؤهلاتهم .

أما الآليات فيقصد بها الاستراتيجية العملية التي يخططها المثقف لإدخال الثقافة الأجنبية إلى ثقافته ،و خلق معطى ثقافي جديد.

ونقصد بالآلات توصيف ظاهرة التناص، وخاصة علائق النصوص الشعرية. وللتدليل على هذه المفاهيم التي تعامل معها محمد مفتاح، نواصل ما بدأناه حول التنظير بالخيال الخلاق في شعر علال الفاسي والذي يمثل الحداثة.

تمكن مفتاح من الإحاطة بأنساق مضمرة في شعر علال الفاسي نظرا لما يملكه من خبرة ومعرفة، فاستطاع أن يكشف ما هو متخفي تحت ما هو جمالي بمعنى بأن شعر* علال الفاسي فيه مخلفات ثقافية، تأثر بالبيئة التي يعيش فيها. يقوم فكره على أسس ثابتة وهي

الأسس التي توصل إليها مفتاح وهذا يفسر شيئا واحدا وهو الوعي الثقافي الذي يمتلكه مفتاح. نعود الى الأسس الثابتة وهي : الإيمان بالله،الدين الإسلامي دين فطرة، ضرورة إصلاح أمور الأمة لتحويل الطبيعة إلى فطرة سليمة ،كما توصل مفتاح الى أن شعر الفاسي يحفل بالألوهية. (الغاية التي خلق من أجلها الإنسان).و بأن الإسلام الفطري هو الحرية والعدل والعقل.

هذه الأسس تفاعلت وتحكمت فيها الإواليات الآتية :

- إوالية التمثيل : حيث قام الفاسي بإدماج ماتمثله في ثقافات أخرى، وخاصة ما تعلق بالإسلام في بعده الإنساني .
- إوالية التكيف: حيث قام بجمع الأصالة والمعاصرة، وراعى ما هو ثابت وما هو متغير.
- إوالية الرفض : قبول ما يزكي مكارم الأخلاق ورفض الإلحاد والشرك.
- إوالية التحصن: ما يحصن هو الإسلام النقي.

من خلال الدراسة التي قام بها مفتاح لشعر علال الفاسي، أثبت أن هناك أبعادا تتحكم في شعره، وهي تتلخص في الإسلام وفي الإنسان وفي الدعوة إلى وحدة الدولة والأمّة، أمّا بالنسبة للميكانيزمات التي اعتمد عليها والمتمثّلة في الإواليات والآليات والآلات، فقد أدّت دورا كبيرا في تعميق النّظر إلى الظّواهر الثّقافية.

2-التحقيب الجديد:

إنّ المتتبّع لأعمال الباحث محمد مفتاح عبارة عن حلقات متراصّة لا يمكن فصلها عن بعضها البعض، فهو (مفتاح) دائما يسعى إلى دفع مشروعه بفهم علميّ قصد تحقيق مسألة علميّة أو تدقيق سؤال معرفي، فلا يخلو بذلك مشروعه الفكري النّقدي من مطارحة.

ضمن هذا السّياق تنخرط قراءتنا لمشروع مفتاح الفكري الذي يتأسس ضمن سياق ثقافي وإيديولوجي متناسق متكامل، مشروع يقوم على فرضيات وينطلق من مقدمات، لينتهي إلى نتائج محددة تثير أسئلة عديدة، إذ أن مشروعه متعدد الاختصاصات، وإن ركز بشكل أكبر على التراث في كتبه إما في الشعر، السرد، الفلسفة، البلاغة والنقد...إلخ.

وكان النموذج التاريخي حاضرا بقوة، " وأطروحته عن الخطاب الصوفي تعد إرهاصا مهما لهذا الحضور، وتحديد أوليا للإطار المنهجي الذي سيطوره لاحقا" ،[13] والقراءة المتأنية

لأعماله قادت إلى استظهار ما يمكن الحكم اعتباره إشكالا مركزيا في تلك الأعمال حيث يقع تركيز الباحث وبصورة ملحة ومتواصلة على تحقيب الثقافة المغربية وإعادة قراءة تراثها.

ويمكن التدليل على ذلك، من خلال هيمنة النصوص المغربية التي يشملها التحليل وتكرر الإشكال ذاته، وهو التحقيب في أهم أعماله وأبرزها : التشابه والاختلاف: من أجل منهاجية شمولية، التلقي والتأويل: مقاربة نسقية، المفاهيم معالم: من أجل تأويل واقعي... وأخيرا مشكاة المفاهيم : النقد المعرفي والمثاقفة .

يتكون كل مجتمع من مجموعة أنساق فرعية تبدو وكأنها مستقلة في الظاهر لكنها متصلة ببعضها البعض في العمق، ومنها التحقيب ،فهو نسق فرعي مبني على مفهوم الاتصال وليس الانفصال. وقد وضع مفتاح تصوره لتحقيب جديد قائم على الاتحاد للجهاد كروح ثابتة، وعلى أحداث عظمى، وهذه الحقب أربعة وهي :

1. حقبة الإتحاد للجهاد : فتح العرب للأندلس وسقوطها.
2. حقبة الإتحاد تحصين للذات والدفاع عن وحدة الوطن : من سقوط الأندلس إلى الانتصار في معركة وادي المخازن.
3. حقبة الإتحاد بعثا لهيمنة الإسلام ومجده : ومن وقعة وادي المخازن إلى فرض الحماية.
4. حقبة الإتحاد للجهاد الأصغر والأكبر استكمالا لتحرير الوطن وبناء الدولة العصريّة.[14]

إشكالات التحقيب الجديد:

هكذا استوى التّحقيب الجديد للثّقافة المغربيّة، وهو تحقيب يضعنا - بخطته الخارجيّة – إزاء أسئلة أساسيّة ثلاثة: أوّلا: على أيّ أساس تم تحديد لحظة الانطلاقة التّاريخيّة للثّقافة المغربيّة لفتح الأندلس؟. وما مصير المراحل السّابقة من تاريخ المغرب؟ ... ثانيا: إذا كانت الرّوح الموجّهة للثقافة المغربيّة هي نفسها لم تتغيّر على مدى الحقب المختلفة: الاتّحاد للجهاد، فكيف تعدّدت الحقب- إذن – وتفاوتت آمادها؟[15]

إنّ هذه الأسئلة تطرح نفسها أمام المختصّين في تاريخ المغرب، وتجعلنا نشك في مصداقية هذا التّحقيب، وعملية التشكيك هذه توقع الباحث مفتاح في مشاكل علميّة

تاريخيّة، فلم راح يفترض تحقيبا جديدا للثّقافة المغربيّة دون مبالاة ودون وضع أيّ اعتبار لبقية المراحل التاريخيّة.

حاول مفتاح أن يلعب دور المؤرّخ، رغم أنّ مجال أو اختصاص التّأريخ ليس من اختصاصه، راح يخوض فيه دون الاهتمام بتقديم مسوّغات علميّة وتاريخيّة مقنعة، لقد تصوّر فتح الأندلس كبداية لتحقيبه، وقد ترك المجال للرّفض أو القبول مفتوحا أمام المختصّ، وذلك في قوله: " وللمختصين في تاريخ المغرب لما قبل الإسلام أن يمحص هذا الاقتراح فيقبله أو يرفضه أمّا نحن فنزعم أنّ الإسلام أجج الصدام مع المخالف وعزّز وحدة الأمّة ووحدة الشّرعيّة باعتبارها ثالوثا يكون جوهره...".[16]

هكذا نجد مفتاح قد أسقط مرحلة طويلة ومهمّة من تاريخ المغرب وهي مرحلة ما قبل الإسلام، إنّ هذه المرحلة لها موقعها في التّاريخ، كما لها أثرها البالغ على المراحل اللاحقة، إنّ إسقاط هذه المرحلة تكرّس مقولة القطيعة الحادّة وليس الاتّصال، كما يزعم لأنّه اعتبر عديد المرّات أنّ منهاجيّة الاتصال هي جوهر البحث العلمي، فبهذا التّحقيب الجديد الذي تصوّره نجده يتجنّى عنها، وهو أيضا لم يبحث عن سبب تسليمه بالقطيعة في تحقيبه بل جعل السكوت المتعمّد والإهمال غير المبرّر وسيلتين يبرّران غايته الإيديولوجية المتحكمة في مقصديته.

يبدو أنّ الباحث له غايات إيديولوجيّة يقف وراءها، لذا غيّب تلك الحقبة – حقبة ماقبل الإسلام، كما أنه كرّس وبوضوح مفهوم القطيعة وإهماله هذا يجعلنا نتساءل حول مدى مشروعية الباحث وفي استيعابه جميع مراحل التّاريخ المغربي.

" محمد مفتاح صاغ خطة تحقيبه بطريقة تغيب تماما قضية النشأة هذه مركزا على الرمزية الإيديولوجية للحدث السياسي كمعلم للبداية والنهاية، ومستوحيا الدلالة الثقافية من منطق الأحداث التاريخية التي انتقاها، لا من الآثار الأدبية والعلمية نفسها".[17]

الباحث يبحث ويؤسس لشرعية المغرب الأقصى في توحيد الماضي والحاضر من خلال ربطهما بوظيفة سياسية تاريخية واحدة هي الاتحاد للجهاد، " حاول بحثنا أن يأخذ بالتراتبية المنفتحة والمتنورة لإثبات مركزية ما ضمانا لوحدة الأمّة والوطن وخوفا من التّشرذم والحروب الأهليّة ريثما تستقرّ العقلانيّة بين أفراد المجتمع، العقلانيّة السّياسيّة والاجتماعية والدّينيّة،فمن أراد أن يحرق المراحل فإنّه يحرق نفسه...".[18]

الجهاز التفكيري والمضمون الإيديولوجي:

إنّ المنهج -المعرفيّ والإيديولوجي يتداخلان ويتكاملان ويوظف كلاهما الآخر بطريقة قصديّة وواعيّة لذلك، فإنّ لذلك فإنّ منهاجيّة التّحقيب، بنيته وأطروحته تتظافر جميعا لتبرير مقصديّة الباحث الإيديولوجية. تلك المقصديّة التي كشف التّحليل السّابق عن جانبها الأوّل: النّزعة المركزيّة أو مركزة التّاريخ الثّقافي المغاربي في حدود المغرب الأقصى، أمّا جانبها الآخر فهو الغاية الثانيّة من التّحقيق: توحيد الحاضر وبناء شرعيته. إنّ أطروحة الباحث التي اتّخذت الوحدة والجهاد مبدأين للتّاريخ المغربي استهدفت في الواقع تشييد منظورين متكاملين بشأن شرعيّة الحاضر وعلاقته بالماضي:

الأوّل: تشييد وحدة الماضي والحاضر من خلال ربطهما بوظيفة سياسية تاريخيّة واحدة هي الاتحاد للجهاد.

الثّاني: تأسيس شرعية الحاضر من منطلق أصلين تضمّنتهما أطروحة الباحث:أحدهما: التّأكيد على الرّسوخ التّاريخي والامتداد الدّيني للحاضر السّياسي المغربي من خلال ربطه بالماضي السّياسي المغاربي، وثانيهما: إضفاء طابع الشّرعيّة الدّينيّة المقدّسة على الحاضر السّياسي المغربي من خلال تحديد ماهيّته التّاريخيّة على أساس وظيفتين مقدستين تاريخيّا ودينيّا: تحقيق الوحدة والقيام بالجهاد.[19]

بناء على ما سبق، يركّز الباحث كثيرا على الموروث العربي، وعلى شخصيّاته البارزة، ومن خلال التقسيمات الجغرافية والسياسية، قدم تحقيبا جديدا للفكر المغربي، يستند في أسسه ومعاييره على ما يمكن تسميته بالزمن الإشكالي الذي يربط بين ما هو معرفي وما هو إيديولوجي، واستنادا إلى ذلك افترض أربعة آماد ثقافية ذات أربعة إشكالات إيديولوجية.

هذا التحقيب الجديد يجعنا نشكك ونتساءل: هل مفتاح ناقد أم مؤرخ أم هو غير ذلك؟ يمكن أن نستشف الإجابة من خلال وصف محمد عابد الجابري للمجال التاريخي للفكر بقوله : "الحقل المعرفي الذي يتكون فيه الفكر والذي يتكون من نوع واحد ومنسجم من المادة المعرفية وبالتالي من الجهاز التفكيري (مفاهيم، تصورات، منهج، منطلقات، رؤية)، والمضمون الإيديولوجي الذي يحمله هذا الفكر، أي الوظيفة الإيديولوجية (السياسية والاجتماعية) التي يعطيها صاحب أو أصحاب ذلك الفكر لتلك المادة المعرفية".[20]

يتأسس المجال التاريخي للفكر- حسب الجابري- من عنصرين اثنين هما: الجهاز التفكيري والمضمون الإيديولوجي.

انطلاقا من هذا الوصف، يمكن القول بأن مفتاح يمتلك جهاز تفكيري يتمثل في رؤية، منهج، منطلقات ،تصورات، مفاهيم وهذا ينبغي أن يتوفر عند أي باحث يبحث عن الحقيقة، كما أن لديه خلفية إيديولوجية .سأله عبد الرفيع الجوهري في لقاء الشهر الأول فقال :" أنت لم تنجح في السياسة وليس ذلك إخفاق على أي حال – لكن أنت صاحب مواقف وتكاد الآن تبوح بأنك تتخذ مواقف من خلال كتاباتك وإن كانت تبقى مضمرة- هناك إكراهات تحدثت عنها : إكراهات ثقافية وإكراهات سياسية وإكراهات إيديولوجية. من أي منطلق تكتب؟"[21]

فأجاب مفتاح بأنه سؤال جيد وأنه أمر يجب أن يوضح:" السياسة تقتضي رجل ذات سمات مدنية خاصة، أما سمات الوضوح فهي تضر أكثر مما تنفع. لذلك اخترت الميدان الثقافي وهو ميدان تحكمه بصفة عامة أسئلة أكاديمية."[22]

من خلال هذا يتضح جليا بأن مفتاح لم يمارس السياسة، فلم يكن له مجال للتعبير عن مواقفه فبقيت مضمرة، فكان لابد أن يخرج طاقاته وأفكاره من خلال اتخاذ الميدان الثقافي كمطية لتمرير أبعاده الإيديولوجية. يقول في هذا الصدد:" أنا لا أسعى إلى وضع نظرية ما وإنما أجد نفسي مدفوع بدوافع لا أشعر بها للكتابة في موضوع معين. وهذه الكتابة هي بصفة عامة نتيجة عوامل متعددة يتقاسمها المناخ الثقافي، والمناخ السياسي والمناخ الاجتماعي..."[23]

و يضيف قائلا :" ...لم تكن مسألة التحقيب مثلا عملية تقتضي وضع شاعر ما في إطار مرحلة زمنية معينة، بل كانت رصدا لتطور جانب من تاريخ المغرب بغية الكشف عن العوامل التي كانت تتحكم فيه. وبالتالي إن اختيار مجال اختصاص ما يحكمه إحساس تاريخي معين، وكما يتخذ الشاعر قصيدته للتعبير عن رؤياه، فأنا إذن أتحذ البحث في مجال معين للتعبير عن آرائي. ليست الكتب إذن أعمالا منهجية محضة، ولكنها في نظري، تعطي الأهمية للفكر أما المنهجية فما هي إلا استدلالات تجريدية لكي يكون البعد الإيديولوجي المتخفي وراءها قائما على أسس "[24]

يوضح في هذا القول أنه يتبع إحساسه في لحظة تاريخية معينة، وأنه يعبر عن رؤياه كما يفعل الشاعر في قضيته، وهل البحث العلمي مثل الشعر؟ العلم ليس كالشعر، العلم قائم على معرفة بالحقائق وعلى افتراضات مرجحة للحقيقة، وهو حقل لا يمكن أن يقوم على مجرد إحساس، أما الشعر فهو ناتج عن إحساس الشاعر بظرف أو لحظة معينة وبهذا مفتاح نراه يخطئ في تشبيهه إحساسه في العلم بتعبير الشاعر عن آرائه، إن آراء العالم ليست كآراء الشاعر، فأين التطابق أو التشابه أو حتى نقطة الالتقاء بينهما .

البحث مجال خصب للتعبير عن الآراء، وتجسيد هذه الآراء لا يكون إلا في كتب، فالكتب تحتفظ بالآراء وبالأعمال لوقت طويل جدا، والعالم يبني ويرتب أفكاره فيها، بمعنى تكون آراءه في ذهنه مشتتة ومتفرقة لكن إذا قام بتسجيلها فهو بذلك يتمكن من تقديم أو تأخير ما يراه ضروريا، الكتب تحفظ المعلومات وفيها ترتب أفكار الباحث، فلماذا اعتبرها مفتاح أنها ليست أعمالا منهجية محضة ؟ إنه بهذا التصريح يجعلنا نفقد الثقة في كل ما قدمه من كتب.

خاض محمد مفتاح في مجال التاريخ وهو ليس من اختصاصه، خاصة وأنه وقع في عدة سقطات أهمها إهماله لمرحلة ما قبل الإسلام وهي المرحلة الأهم في تاريخ العرب أجمعين. لقد وقع في إشكال آخر وهو مركزية الثقافة في المغرب الأقصى، كما أنه راح يغامر بتصوراته باقتراح تحقيب جديد للتاريخ السياسي والثقافي المغربي، وقد وقع أيضا في ضوء عملية بحثه في مشكلة آرائه الإيديولوجية المتخفية أحيانا والظاهرة أحيانا أخرى.

أعماله تشكل اختلافا وتعارضا في الأسس الابستيمولوجية الراهنة، إن خطابه هذا توحيدي في شكله، لكنه يثير الكثير من التساؤل النقدي. ليس على مستوى المنهجية التي تطرحها المعرفة الإنسانية، وإنما أيضا على مستوى الحقائق العلمية والإرهاصات المستقبلية.

قرأ الباحث التراث المغاربي في تياراته الثلاثة: البلاغي المنطقي، الكلامي الفلسفي والتأويلي التصوفي مستحضرا عدة نظريات، محققا إياها ضمن ما يراه مناسبا من تصورات، وتأسيسا على كل ما تقدم، يمكن القول، إن محمد مفتاح بدا كمؤرخ للعلم أكثر منه ناقدا أو دارسا للأدب، فقراءته للتراث السياسي والثقافي جعلته قريبا من مجال

تاريخ العلوم، لكن ليس مؤرخا بالصورة العلمية المتوخاة من كل مؤرخ، بل نقول بأنه جازف وغامر بالكثير من الحقائق العلمية والتاريخية.

الهوامش:

[1]: دلال فاضل،خصائص الخطاب النقدي عند محمد مفتاح،مذكرة ماجستير،جامعة خنشلة،ص196

[2]: نورثروب فراي،تشريح النقد،تر:عصفور محمد،منشورات الجامعة الأردنية،عمان،1991،ص 22-23

[3]: عبد الله الغذامي، النقد الثقافي، قراءة في الأنساق الثقافية العربية، المركز الثقافي العربي، بيروت

[4]: يوسف عبد الله الأنصاري، منتدى النقد الثقافي و أسئلة الملتقى، جامعة أم القرى، 1429هـ- 2008م،على الرابط: http://adab.marocs.net/u1 يوم الجمعة 22 أكتوبر 2010 على الساعة 5:58.

[5]: محمد عبد المطلب، النقد الأدبي، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ط (1)، 2003، ص 94

[6]: عبد الله الغذامي، النقد الثقافي، ص 55، 89

[7]: عبد الفتاح أحمد يوسف، قراءة النص و سؤال الثقافة، استبداد الثقافة و وعي القارئ بتحولات المعنى، عالم الكتب الحديث، أربد، الأردن، 2009، ص 10

[8]: عبد الله الغذامي، نقد ثقافي أم نقد أدبي، عبد النبي أصطيف، دار المعاصر، سوريا، ط (1)، 2004،ص 30

[9]: محمد مفتاح، دينامية النص، ص 50

[10]: محمد مفتاح، دينامية النص، ص 88

[11]: سورة الأعراف، الآية [38-39].

[12]: سورة الأعراف، الآية [29].

[*] : علال الفاسي، الديوان، الطبعة الثانية، البوكيليللطباعة و النشر و التوزيع، 1998.

[13]: مجموعة باحثين، محمد مفتاح المشروع النقدي المفتوح، ص 25

[14]: انظر: محمد مفتاح، التشابه و الاختلاف، و انظر كتابيه: التلقي و التأويل، و مشكاة المفاهيم خصوصا الفصل الثامن، و إشكال التحقيب المنشور ضمن سلسلة ندوات و مناظرات رقم 56، كلية الآداب و العلوم الإنسانية بالرباط، 1996، ص 67، 77

[15]: مجموعة باحثين، محمد مفتاح المشروع النقدي المفتوح، ص 135

[16]: محمد مفتاح، المفاهيم معالم، ص 137

[17]: مجموعة باحثين، محمد مفتاح المشروع النقدي المفتوح، ص 143

[18]: محمد مفتاح، التشابه و الاختلاف، ص 88

[19]: مجموعة باحثين، محمد مفتاح المشروع النقدي المفتوح، ص 147، 148

[20]: محمد عابد الجابري، نحن و التراث، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط (2)، 1982، ص 42

[21]: لقاء الشهر مع محمد مفتاح، البوكلي للطباعة و النشر و التوزيع، المغرب، ع 2، ط (1)، 1998، ص 18

[22]: نفسه، ص 19

[23]: نفسه، ص 17

[24]: المرجع السابق، ص 17، 18